الفصل الأول

الحضارة المصرية وعصور ما قبل التأريخ

المبحث الأول: الخلفية الجغرافية للحضارة المصرية القديمة

إن للبيئة الجغرافية بمختلف اشكالها اثر كبير في الحياة الانسانية ولكي نلم بالحضارة المصرية القديمة وسير تأريخها منذ نشوئها وتطور هذه الحضارة وادوارها لابد من التعرف على جغرافية وادي النيل التي اثرت تأثيراً مباشراً في حوادث التاريخ المصري القديم .

تقع مصر في الجانب الشمالي الشرقي من قارة افريقيا ، يحدها من الشمال البحر المتوسط المتصل باوربا وفي الشرق البحر الأحمر وآسيا اما حدودها الغربية فتتجه الى شمال افريقيا كما تمتد حدودها الجنوبية الى قلب افريقيا، فهي في ملتقى القارات الثلاث تتأثر بها وتؤثر فيها . وكان لهذا الموقع أثر كبير في نشأة الحضارة المصرية القديمة وتطورها ، فقد أثر القسم الشمالي منها والذي يعرف باسم (الدلتا) أو (الوجه البحري) في حضارة البحر الابيض المتوسط وتأثر بها وظهر ذلك واضحاً في حضارة الفينيقيين والكريتيين واليونانيين ، وأثر القسم الجنوبي منها الذي يطلق عليه أسم (الصعيد) او (الوجه القبلي) في حضارة بلاد النوبه والحبشة وتأثر بها أيضاً.

إن أبرز ما يميز مصر هو نهرها العظيم (النيل) مصدر الحياة والخصب حيث اطلق عليه هيرودوتس مقولته المعروفة (مصر هبة النيل) إذ لولاه لأصبحت مصر صحراء جرداء فهي قطر عديم المطر بشكل عام ، ويمتد النيل على طول القطر المصري من جنوبه حتى شماله مكوناً وادٍ طويل وعلى جانبيه الأراضي الضيقة الخصبة التي يمكن العيش منها ، وقد عمل ضيق هذه الشقة الخضراء على تكاثف قرى الفلاحين وجعل القرية تكون لصق القرية اقتصاداً بالاراضي القابلة للزراعة ، إذ تكون الاراضي القابلة للزراعة في مصر نسبة (3,5%) من مجموع الأراضي أما المساحة الأكبر أي الـ (96,5%) فهي بادية جرداء غير قابلة للسكن . ولعل أهم ما يميز (النيل) مما كان له

اثر عظيم في حياة مصر وتأريخها هو فيضان هذا النهر وموعد فيضانه ، فعلى هذا الفيضان وعلى موعده تعتمد حياة مصر وخصبها ، اذ يكون النيل في مصر في نهاية شهر أيار على اخفض مستوى له ، ولكنه يبدأ خلال شهر حزيران بالارتفاع فيما بين القاهرة واسوان ويرتفع النهر سريعاً خلال شهر آب وتستمر مياه النيل بالارتفاع الى منتصف ايلول حيث تستقر ثانية في مستواها زهاء اسبوعين او ثلاثة اسابيع ويحدث في شهر تشرين الاول ارتفاع آخر في النهر ، ومن ثم تبدأ المياه بالهبوط وتستمر في هبوطها حتى تصل الى اوطأ مستوى لها في آيار القادم وهكذا تبدأ دورة النيل من جديد ، وعلى الرغم من انتظام النيل وما يقال من انه اقل عنفاً من نهر دجلة مثلاً الا انه قد يكون متقلباً من حيث الزيادة والنقصان في كمية فيضانه ، ففي حالة الزيادة فوق المعتاد يكون التدمير والتخريب وفي النقصان القحط والمجاعة ، فلا عجب اذا ما وجدنا المصريين القدماء يقدسون النيل ويجعلونه إلهاً من آلهتهم خصوه بالتمجيد ونظموا له التراتيل الدينية وخصصوا اعياداً لعبادته وكذلك نجد اثر نهر النيل في عقائد المصريين في عالم ما بعد الموت حيث توضع في قبور موتاهم قوارب للملاحة للعالم الآخر.

ومن المميزات البارزة في جغرافية مصر عزلتها الجغرافية حيث تكاد تكون اقليماً مقفولاً ، فإلى الشمال البحر الذي لا يمكن ان يعبره الى مصر إلا قوة بحرية تعتمد على السفن الكثيرة وبقياس كبير. أما صحراء سيناء فكانت تحجز مصر نوعاً ما من الاتصال بقارة آسيا ، والى الشرق والغرب من الوادي توجد صحارى منيعة صعبة لا يمكن عبورها الا للقوافل الصغيرة من التجار ولكنها تكون موانع حاجزة للجماعات الكبيرة التي تريد اقتحام البلاد بالقوة ، أما الساحل الليبي فلم يكن صالحاً لغير تنقل الرعاة تنقلاً سلمياً ، والى جهة الجنوب توجد حواجز مانعة أيضا ً حيث منطقة الشلالات والصحاري النوبية وهي موانع صعبة العبور شمالاً او جنوبا ً. إن هذه العزلة والضمان الذي كان يشعر به المصريون القدماء بالنسبة الى توفر مياه الارواء بالنيل وانتظام دورته بوجه معتاد وضمان العيش في بيئة اقل عنفاً وتقلباً من بيئة وادي الرافدين انعكست في نفسية الانسان المصري كالاعتداد بالنفس وبما أنجزته في السيطرة على مياه الارواء وشعورها بالطمأنينة والحماية ، حتى إن ما ورد من أساطير وقصص عن الخليقة تمتاز بالهدوء وعدم العنف بالمقارنة مع ما يضاهيها في حضارة وادي الرافدين .

وكنتيجة للفوارق الطبيعية لوادي النيل فقد انقسمت مصر جغرافياً وتاريخيا الى قسمين هما القسم العلوي (ارض الصعيد) والقسم السفلي (الدلتا البحرية) حيث اتسم كل منهما بسمات طبيعية واجتماعية مختلفة من حيث السكان والعادات وأساليب العيش فالقسم العلوي يقع في الجنوب وهو حسب التعبير المصري القديم (توريس) وهو عبارة عن ارض خصبة جداً ولكنها عبارة عن شقة ضيقة لا يزيد عرضها في جانبي النيل على (10) أميال ، والقسم الشمالي (توميحت) حده الجنوبي القاهرة ، والدلتا مثلثة الشكل تسقيها فروع النيل والترع المتشعبة منها وعرض الدلتا نحو (200) ميل وطولها نحو (100) ميل ، والدلتا الحالية محصورة بين فرع دمياط شرقاً ورشيد غرباً والدلتا أرض غرينية رسوبية تكونت بفعل الترسبات النهرية .

ويحد وادي النيل شرقاً وغرباً سلسلة تلال حجرية يتراوح ارتفاعها بين (300-1000) قدم وتمتد على الجهتين صحراء العرب والصحراء الليبية وينفذ من كل منهما فتحات كانت بالأصل مجاري سيول وانهار كانت تصب في النيل في العهود الجليدية ولكنها أصبحت في العصور التالية مداخل الى وادي النيل للقوافل القادمة من سواحل البحر الأحمر شرقاً ومن سلسلة الواحات الكائنة في الأراضي المنخفضة من جهة الغرب . ولابد من الاشارة الى ان الأحوال المناخية في العصر المسمى (البلا يستوسين) كانت تختلف عما هي عليه في الوقت الحاضر اذ ساد ذلك العصر اجواءاً ماطرة في معظم انحاء الشرق الادنى القديم ومن ضمنها مصر التي كانت وافرة المياه في مختلف اجزائها حتى الصحراوية منها والتي كانت عامرة بالنباتات والحيوانات ، وبعد أن حلّ الجفاف مع نهاية العصور الجليدية وبداية العصور الحجرية القديمة التجأ صيادو العصر الحجري القديم الى النهر واخذوا بالاستيطان قربه وكانت بيئة النهر آنذاك وحشية تغطيها الغابات والأحراش النهرية واهوار القصب فعمل المصري القديم على تجفيف الاهوار وتطهير الغابات ومن ثم تنظيم مياه الارواء ، ومن المؤكد ان هذا الجهد شغل الوفاً من السنين واستغرق معظم عصور ما قبل التأريخ .

وكمقارنة بين بيئة وادي الرافدين وبيئة وادي النيل نجد ان مصر غنية بالحجارة الضخمة التي شيّد بها المصري القديم الأهرام والمعابد والمنحوتات وكذلك المعادن كالنحاس والذهب المتوفرة في صحراء سيناء والحبشة والسودان والنوية .

أما سكان وادي النيل فهم من اصل أفريقي من الحاميين وتوجد عناصر مختلطة بهم من الأقوام الجنوبية كالأحباش والزنوج والنبط إضافة إلى إن هجرة جزرية دخلت مصر في الألف الرابع ق.م اختلطت بالسكان الأصليين فتكوّن من كل ذلك المصريين كما نعرفهم في التأريخ